بعض الفروض المتعلقة بآثار التليفزيون

إن كثيراً من الباحثين، والمعلمين، وأولياء الأمور يعتقدون أن التليفزيون يؤثر في سلوكيات الناس، وهناك - على سبيل المثال- عديد من الدراسات التي خلصت إلى نتائج تبين أثر التليفزيون في حفز السلوك العنيف لدى الأطفال. كما أن هناك دراسات كثيرة انتهى أصحابها إلى بيان كيف تؤثر برامج بذاتها في جعلنا نفكر أو نستجيب بطريقة معينة، ولكني من جانبي أجد صعوبة في قبول كل ما سبق ببساطة، كما أن الأسباب التي أوردها الباحثون ليبرهنوا على قوة التليفزيون في التأثير في السلوك البشري تحتاج لأن يدرسها المربون بكثير من العناية والاهتمام.

ومما لا شك فيه أن هناك كثيراً من العنف ضمن ما يقدمه التليفزيون، ونحن تأكيداً نعيش في أوقات يمكن أن نسميها، دون تجاوز «أوقات العنف Vialent Tines». وإني لأتساءل

فيما بيني وبين نفسي إذا ما كان لدينا دليل يثبت أن هذه الأوقات العنيفة، أو أوقات العنف هذه أكانت تكون هناك لو لم تكن ببيوتنا -نحن الأمريكيين- أجهزة التليفزيون الموجودة فيها حالياً. إن هناك الكثير من الأبحاث التي تحاول إيجاد علاقة وارتباط بين العنف المقدم على شاشات التليفزيون وأنواع السلوك غير الاجتماعي.

ودعونا نضع في اعتبارنا الطبيعة العدوانية الهائلة للتليفزيون الياباني ونقارنها بالهدوء النسبي الذي يكاد يخلو من العنف في الشوارع اليابانية. . إن مما يثير قلقي أن يرتكب الشباب الصغار في مجتمعنا جرائم قتل متعمدة، ثم يأتي محاموهم للدفاع عنهم ويضعوا ثقلهم صراحة -وربما يكونون مخلصين في ذلك- على التليفزيون، وهم يقولون مدافعين: إن هؤلاء الشباب، وكذا أسرهم، بل حتى ثقافاتهم. . لا يمكن إلقاء اللوم عليها. . وإنما المتهم الوحيد هو. . التلفيزيون. . !!

لماذا كنا شديدي البطء في التحقق من ذلك، إذ الواقع أن كل جريمة شاهدنا وقوعها على شاشة التليفزيون، شاهدنا معها كذلك الشخصية الإجرامية وقد جرى القبض عليها

واتهامها . . وبسرعة نالت جزاءها عقاباً رادعاً، رغم أن السرعة التي يتم بها الاتهام والعقاب تبدو غير واقعية في حدوثها . لماذا لم نَعُد التليفزيون -بمنتهى الجدية والحسم- أداة لمنع الجريمة والحد منها، ثم يقوم الباحثون بالتأكد من واقعية ذلك أو من بعده عن أن يكون حقيقة . . ؟ ولماذا لم يعبر الباحثون بالتأكد من واقعية ذلك أو من بُعده عن أن يكون حقيقة . . ؟ ولماذا لم يعبر الباحثون إلا عن قليل من الاهتمام في اكتشاف أن الكثير من التمثيل في مجالات الدفء والحنان والعطف التي نراها على التليفزيون من الممكن أن تكون ناتجة عن أمور متبادلة يمكن ملاحظتها والتحقق منها في مجتمعنا . . ؟

وكما سبق أن فصَّلت في مناقشتي عن أثر التليفزيون في التحصيل المدرسي، أقول : إننا نميل لأن نكون مندفعين لإلقاء اللوم على أي شيء، أو أي شخص، حينما نلاحظ أموراً أو ظواهر ثقافية أو اجتماعية أو تربوية . وإني أسلم وأعترف بأن الالتزام بنظام قاسٍ في مجال برنامج معين من برامج التليفزيون الخاصة، عندٍ مرحلة معينة من مراحل نمو الطفل قد يكون عاملاً فعالاً في ممارسات ذلك الطفل التي

يأتيها بعد ذلك. بل إني قد أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إنه ربما لا تكون هناك علاقة على الإطلاق بين التليفزيون وما يأتيه ذلك الطفل من حركات وأفعال. إننا -لكي ننطلق من مجرد تخمينات أو تأملات مبدئية إلى القبول بنتائج البحوث التي لا يرقى إليها شك في أن التليفزيون يفعل ذلك للأطفال- إنما يعني أننا نذهب بعيداً جداً أبعد من المعقول، وربما أكثر مما تتطلبه الحكمة.

كذلك قناعات طوائف ضخمة من جماهير المشاهدين، أو حتى «تفكيرهم بشأن» برامج معينة تستحق العناية والاهتمام من جانب التربويين. إنه رغم أننا يمكن أن نستجيب أو قد نستجيب لنفس المثيرات، هناك شيء من الشك في أن كل اثنين من الناس «يستقبلان» دوماً نفس الرسالة التليفزيونية. وبنفس القياس يمكننا أن ننظر إلى نظريات بعينها بخصوص كيفية استجاباتنا للمؤدب مثلاً، حيث نجد أن كثيرين يقولون إنه ليس هناك شخصان «يقرآن» نفس الكتاب، أخذا في الحسبان -طبعاً- خلفية كل منهما، وتوقعاتهما، ونظرتهما للعالم، واطلاع كل منهما على الأحداث.. إلخ. ومن هنا حينما نتحدث عن: كيف يؤثر

برنامج معين فينا، فإننا ينبغي أن نكون واعين ومتيقظين جداً للتنوع الواسع العريض لكل الاختلافات الموجودة بين البشر.

لقد قيل عن التليفزيون إنه وسيلة الاتصال التي يمكن من خلالها لملايين الأشخاص أن يضحكوا في نفس الوقت على نفس الطرفة أو النكتة، ورغم ذلك يظل كل منهم شاعراً بعزلته. وهذا القول لا يعني، على أية حال، أن هؤلاء الأفراد يضحكون لنفس السبب، كما أنه لا يعني أنهم يشعرون بالوحدة والعزلة لنفس السبب أيضاً.

إن وجهة نظري التي أومن بها هي أنه رغم أن التليفزيون موجه لجماهير عريضة من المشاهدين يبقى التنبؤ باستجاباتهم لما يشاهدونه ليس أمراً سهلاً، هذا إذا كان ممكنا قياس تلك الاستجابات أصلاً. إننا قد نشاهد ذات البرنامج، ولكن لأسباب مختلفة، كما أننا ونحن نشاهد تلك البرامج نختلف بيننا في درجة الانتباه التي نشاهدها بها، وكذا في نفاذ بصيرتنا حيال ما نشاهد. إننا إذا ما فهمنا ذلك ووعيناه تماماً، فإننا سوف نشاهد بشيء من الحذر الادعاءات التي لا يقوم عليها دليل أو برهان والشكوك المتعلقة «بتأثيرات» التليفزيون وعروضه في المجتمع.

وعلى سبيل المثال، لا زلت أذكر استجابة أسرتي تجاه حلقة خاصة من حلقات المسلسل «All in the Family» حينما ماتت «إديث Edith»، وكنا نراقب «آرشي Archie» في تقبله السهل والمتدرج لموتها. وعند مرحلة معينة كانت عندي مشاعر حب استطلاع في معرفة كيف كتبت حلقات ذلك المسلسل، وكيف يمكن أن تكتب -من جديد- ولكن على مستوى شخصي إلى درجة أني أحسست بأن صديقي -وقتاً طويلاً-* «آرشي» سوف يجد صعوبة في تقبل وفاة زوجته المفاجئ.

لقد كبرت أنا وزوجتي على حب «إديث Edith» والإعجاب بها على مدار سنوات طويلة، ولما كانت حلقات ذلك المسلسل عاطفية النزعة - بخاصة حينما ماتت الممثلة «إديث» تلك- فقد رفضت زوجتي الاستمرار في مشاهدة باقي الحلقات، وأصبحت تفضل مشاهدة عروض تليفزيونية ذات طبيعة أخف، وأصبحت كذلك تختار مشاهدة المسلسلات

* تعبير المؤلف هنا عن صداقته لأحد شخوص المسلسل يدل على مدى التفاعل بين المشاهد والممثلين، وحين يقول إنه صديقه «وقتاً طويلاً» فهذا يدلنا على كثرة حلقات ذلك المسلسل، ويكفي أن يعلم القارئ العربي أن هناك في أمريكا مسلسلات تذاع حلقاتها سنوات طويلة متتالية. . دون توقف. . المترجِم.

التي تتـوقع ألا تكون فـيـهـا نهـايات مـحـزنة تصـدم المشـاعـر والأحـاسيس، ومنذ ذلك الحين أصبحت أداوم على مشاهدة باقي المسلسل «All in the Family» أنا وابنتـاي الكبـريان، اللتان كانتا -آنذاك- في التاسعة والعاشرة من عمريهما.

لقد نظرت إلى هذا المسلسل بوصفه شيئاً ذا قيمة خاصة. شيء من الممكن أن نستمتع به سوياً، بل ربما نستفيد منه كذلك، ولقد اعتادت ابنتي الوسطى، ذات تسع السنوات أن تحضر صينية طعامها وتجلس لتشاهده، ولكنها ما كانت تستمر كثيراً أمام التليفزيون، فما تكاد تمر خمس عشرة دقيقة حتى تكون قد غادرت الحجرة بعد أن تكون قد فقدت رغبتها في متابعة قصة المسلسل، ولم يكن هذا هو الحال مع ابنتي الأخرى «كيري Kerri» التي شاركتني البكاء في نهاية البرنامج، وفي بعض الأحيان كان كل منا يذرف دموعه على حدة كذلك وحيث إننا كنا نشعر -معاً- بأننا نريد أن نفرغ الشحنة الانفعالية العاطفية الناتجة عن مشاهدة ذلك البرنامج كنا نخرج لنتمشى قليلاً حول مجموعة المنازل المحيطة بمنزلنا كي نتخلص من أي ضغط انفعالي يكون قد ألم بنا في حجرة التليفزيون.

ولمعرفتي بابنتي «كيري Kerri» (أو لتصوري أني أعرفها) كنت واثقاً من أننا بمجرد أن بدأنا الحديث حول موت «إديث Edith» وتقبل زوجها «آرشي Archie» لذلك الموت، أن ابنتي كانت لديها القدرة على أن تربط أحداث القصة ببعضها، وعلى أن تصل كذلك إلى الهدف من المأساة أو الدراما التمثيلية، والذي تدور فكرته حول أن «آرشي Archie» لم يكن قادراً على أن يتصالح مع نفسه، وأن ذلك لم يحدث له إلا في نهاية المأساة حين سمح لنفسه بأن ينفجر في البكاء حين تحقق من موتها وتقبله.

ولكني حين سألت ابنتي بفضول عن مرمى القصة ومغزاها كانت إجابتها بأن القصد منها كان أن يبيّن الكاتب إحساس «آرشي Archie» بالذنب لأن زوجته Edith قد ماتت بسبب أساليبه القاسية في معاملتها معظم الوقت. لقد شاهد كل منا ذلك البرنامج من بدايته إلى نهايته، وكان لدى كل منا معرفة مسبقة بالأشخاص الذين قاموا بتمثيله، ورغم ذلك فسر كلّ منا ما شاهده على الشاشة الصغيرة تفسيراً مختلفاً تبعاً لاختلاف شخصيتينا، وكذلك لاختلاف درجات نضجنا، وتنوع خبرات كل منا، بل كذلك لاختلافنا في القيم والمخاوف.

وإني لأتساءل -حقاً بعد هذه التجربة- كيف يمكن لشخص ما إن يعمم الإحساس الذي خرج به أربعة أشخاص «شاهدوا» ذلك البرنامج، رغم أنهم جميعاً أعضاء أسرة واحدة. . ؟ وهم جميعاً -طبعاً- يعيشون في نفس البيئة.

وإذا كان التعميم في حالة هؤلاء الأفراد الأربعة صعباً، رغم كونهم من أسرة واحدة، فكيف يكون التعميم والسؤال عن آثار برنامج معين، أو برامج في جماهير عريضة من المشاهدين. . ؟ إننا بمجرد أن نبدأ في تحليل ما نشاهد على التليفزيون، وكيف نشاهده، فإن هناك عدداً كبيراً من الفروض المتعلقة بمشاهدة التليفزيون -كوسيلة إعلامية- ينبغي أن نضعها في اعتبارنا.

وفي أحد الفصول التي أدرِّس فيها عن التليفزيون أحاول جاهداً التوصل إلى إجابات من الطلاب الذين تقاسموا خبرات متشابهة أو مشتركة نتيجة مشاهدتهم للتليفزيون. ولكن رغم أن خمسة عشر منا، أو حتى عشرين قد شاهدوا مسلسل «Hill Street Blues» ذاته، على سبيل المثال، يندر أن تجد شخصين منا يتفقان على أي حلقات هذا البرنامج كانت أكثر إثارة أو أكثر جذباً للمشاهدين، بل إنهما لن يتفقا

على أي أنواع الحوار التي دارت فيه من حيث جودتها، وكذلك ربما لا نجد من يتفق على نوع من أنواع التعبيرات الجذابة التي قالها أي ممثل من الممثلين في هذا المسلسل بحيث أصبح هذا التعبير عالقاً في الأذهان.

وحينما ننغمس في مناقشاتنا وحواراتنا حول مانشاهد على التليفزيون، نصبح أكثر مهارة في مساعدة أبنائنا وطلابنا في أن يسألوا ويجيبوا على أسئلة حرجة وشخصية أو ذاتية. وسوف يكون لديَّ كثير مما سأقوله فيما بعد حول قدرة التليفزيون الكامنة على توسيع وتعميق الخبرات، وذلك في القسم التالي من هذا الكتاب. ولكن النقطة التي ينبغي فهمها هنا والتركيز عليها هي أن استجاباتنا للتليفزيون شديدة التعقيد ومرتبطة بذواتنا وشديدة التنوع والاختلاف شأنها في ذلك شأن خبراتنا ذاتها، وهذا هو -تحديداً- ما يؤدي إليه الحديث والتفكير الذي يدور حول قناعاتنا عن ماهية التليفزيون.

وبدون حديثنا عن التليفزيون، ودون تفكيرنا فيه قد ننجرف بسهولة إلى الاعتقاد بأن التليفزيون قد يتسبب في دفع الناس لإتيان بعض الأمور، فحينما نلاحظ بعض

الارتباطات، -مهما كانت ضعيفة مقارنة بغيرها من أنواع الارتباطات الأخرى المتعلقة بالسلوك- فإنه يكون لدينا نزوع كامن للبحث عن أسباب بعينها.

إن المشكلات الاجتماعية -عندما نلاحظ- نجد أن الاختصاصيين الاجتماعيين، خاصة، يبدؤون في البحث عن تفسيرات لها، إذا أبقينا هذا الأمر في أذهاننا فدعونا نعتبر الوضع التالي: إننا نعيش في مجتمع يبدو كأنه مدمن Addicted على وسيلة من وسائل الاتصال التي تقدم -باستمرار وبثبات- عشرات من البرامج التي نشعر بشيء من الذنب حين مشاهدتها، بل لا نجد ما ندافع به عنها، أو بالأحرى عن مشاهدتنا لها.

إن ظروفاً مثل هذه هي -تماماً- الظروف المناسبة، والمناسبة جداً، لإلقاء اللوم على تلك الوسيلة بوصفها أنها التي تتسبب في كل أنواع السلوك المنحرف، بل لأنها خلف كل أمراضنا وعللنا الاجتماعية.

إن هذا الوضع، في رأيي، يمثل الظروف التي نحياها هذه الأيام، حين يناقش التربويون آثار التليفزيون، وحينما يتوصلون إلى «شواهد» أكثر لا تقوم -في الواقع- إلا على

فروض هشة رقيقة لا تكاد تقف على أقدامها. إن الرغبة في التوصل إلى برهان أو دليل -حين تتجاوز العقل والموضوعية- فإن الأمل في زيادة الفهم تصبح فرصة قليلة.